

غادة السمان؛ لسان امرأة سوريا

د. طارق أحمد أهنعر

بلال أحمد يتو

الباحث في قسم اللغة العربية
جامعة كشمير، سرينغر

الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية
جامعة كشمير، سري نغر

الملخص

تعد غادة السمان من الكتاب القلائل الذين قضوا حياتهم في تمثيل النساء العربيات وإبراز قضاياهن الفردية والاجتماعية. كتبت غادة السمان أكثر من أربعين كتاباً في الفنون الأدبية المختلفة وأبرزت من خلالها القضايا النسوية السائدة في المجتمع السوري. الصراحة في تعبيرها والقوة في حججها تجعل أديها ثورياً عالمياً. يركز هذا المقال على الجزء النسوي من أديها وإلقاء الضوء على قضايا المرأة السورية السائدة في مجتمعها مشيراً إلى رواياتها وقصصها القصيرة ومقالاتها.

الكلمات المفتاحية: تحرر المرأة، انتهاك الحقوق، التحرش الجنسي، التمييز الجنساني، حق التصويت، العنف، المجتمع الذكوري، استغلال المرأة،

المقدمة

نشأت غادة السمان في فترة كانت فيها سوريا تخضع لتغيرات كبيرة، كانت العواقب المميّنة للانتداب الفرنسي على دروتها، وقضية فلسطين، وفشل التحالف بين سوريا ومصر، وعدم الاستقرار في السياسة السورية، وهزيمة حزيران ١٩٦٧ء، كل هذه الظروف أعطتها التجارب القاسية، وعدم الاستقرار في حياتها الأسرية أضف إلى هذه المصائب من الناحية الأخرى. قادتها هذه الظروف إلى الوجودية وبدأت في تصوير بؤس العوام وإبراز القضايا الأساسية في أعمالها. تعكس غادة السمان القضايا للمرأة فردياً واجتماعياً، كما تصور كيف سلبت منها الحقوق الأساسية التي أعطتها المجتمع، ونصحت المرأة أن تعلمها وتعرفها وتسامي في طلبها وترفع صوتها ضد انتهاكها، ثم تدعوهم إلى الحرية التي تدعو إليها المرأة المثقفة. وسنذكر بعض القضايا النسوية التي تعكسها غادة السمان في أعمالها.

انتهاك حقوق المرأة الأساسية

تدور معظم أعمالها حول المرأة السورية، وتصور من خلالها كيف تحرم المرأة من الحقوق الأساسية، وكيف تجبر على التضحية بأحلامها في المجتمع الذكوري. تعكس في إحدى قصصها القصيرة امرأة سورية تريد أن تكتمل دراستها وأن تصبح

^١ فتحت غادة السمان عينيها في بيت مثقف بدمشق عام ١٩٤٢ء. كانت والدتها شاعرة وكان والدها أحمد السمان رئيساً للجامعة السورية ووزيراً للتعليم لفترة من الزمن. توفيت والدتها وكانت طفلة صغيرة فعاد مسؤولية تربيته على كنف أبيها. كان والدها محباً للعلم والأدب ومولعاً بالثقافة العربية في الوقت نفسه، وهذا ساعدها في تكوين شخصيتها وصقل مواهبها. درست غادة السمان في جامعة دمشق وأكملت البكالوريوس في الأدب الإنجليزي عام ١٩٦٣ ثم التحقت بالجامعة الأمريكية في بيروت وحصلت على شهادة الماجستير. ثم اشتغلت كمراسلة صحفية وسافرت إلى أوروبا وتجولت بين البلاد الأوروبية. منحتها هذه الوظيفة فرصة ذهبية لفهم الحياة الغربية التي صورتها في رواياتها وقصصها فيما بعد. تعيش غادة السمان في باريس منذ أواسط الثمانينيات ولا تزال تكتب في المجالات العربية.

طبيبة ولكن يجبرها والدها على الزواج وتحطمت أحلامها بحيث تصف غادة السمان مشاعر هذه المرأة بكلمات آتية:
"صوتي الذليل الذي رجوته به كي يسمح لي بالذهاب إلى دمشق يرتعش الآن أمامي في زجاج النافذة.. دوائره
المتسعة تضيق وتضيق حول عنقي فتدميه:(أبي.. أرجوك.. أعني هل من الممكن.. أقصد.. هل يمكن أن أحلم
بالذهاب إلى كلية الطب).. وكما كان جوابه مختصرا وبليغا صفعه على خدي، بصفة إلى الأرض.. وتخبط الحلم
الذهبي بين سنابك واقعي"²

العنف ضد المرأة

المجتمع الذي يهيمن عليه الذكور، لا ينتهي التمييز فيه عند تفضيل الرجل على المرأة فحسب بل يمتد إلى العنف ضدها.
تصف غادة السمان امرأة في إحدى قصصها التي تزوج من رجل يعمل قاضيا وهو لا يبالي بمشاعرها ولا يعتني بها فتقول
الامرأة:

"إنه قاض، وفي كل ما يدور ظلم لي.. ولكنه أيضا رجل أعمال كبير.. ربما تسرب ذلك الجزء من شخصية

إلى علاقتنا.. عواطفه تخضع لقانون العرض و الطلب"³

العنف ضد المرأة يحدث بأشكال عديدة، ويكون جسديا وعاطفيا وجنسيا. وللأسف مجموعة كبيرة من الرجال
متورطون في هذه الجريمة. تتأسف غادة السمان على هذه الجريمة الخطيرة السائدة في المجتمع السوري، وتصور قلق
النساء اللواتي تعرضن للانتهاك جسديا وعاطفيا. نجد نفس الشيء في روايتها "الرواية المستحيلة" حيث تشعر "ماوية" بقلق
شديد لأن زوجها يضربها ولا يبالي بمشاعرها، تقول ماوية:

"أدركت ذلك بعد فوات الأوان إذ بعدها بأيام بدأ زوجي الأستاذ الجامعي المحترم يضربني وتعرفت عليه

من الداخل... لطيف أمام الناس، ووحش في الخلوّة"⁴

عدم المساواة بين الذكور والأنثى

منذ بداية الحضارة الإنسانية، حاول الرجل من المجتمع الأبوي أن يثبت أنه أفضل من المرأة. ومع مرور الوقت آمن
المجتمع بهذا الأصول حتى أيقنت المرأة أنها لا تستحق ما يستحقه الرجل. تصور في روايتها "الرواية المستحيلة" هذا الجانب
من المرأة من خلال "بوران" (الشخصية الأنثوية في الرواية). بوران تنصح البنات اللواتي تلعبن مع الأبناء وتقول:

تنفسي من فمك فقط ولا تلهي. عيب. كلي "النعومة" هنا. لا تأكلي أمام الصبيان. أنزلي وركك حين تقفين وعن خصرك حين
تتحدثن..... وأنت يا زين لماذا تتحرشين في لعب الصبيان عيب. عيب. ⁵

و في مقام تسألها زين لماذا تزجرتني أنا لا دريد فتجيب بوران "لأنك بنت أما الصبي فلا يعيبه شيء"⁶

² غادة السمان، عياك قدري، ص ٩٢

³ غادة السمان، ليل الغرباء، ص ١٠

⁴ غادة السمان، الرواية المستحيلة، ص ٣٥٥

⁵ غادة السمان، الرواية المستحيلة (فسيفساء دمشقية)، ص ٤٧

⁶ المصدر السابق، ص ١٢٢-١٢٣

بناء عليه، فهي تعول على وضع المرأة في العالم على وجه العموم وفي العالم العربي على وجه الخصوص، وذلك من خلال إبراز المشاكل التي تواجهها المرأة من التحكم الاجتماعي القاسي عليها وحرمانها من حق ابداء الرأي في الشؤون الاجتماعية. وهذا ما وجدنا في إحدى مقالاتها عندما تعبر عن هذه المشاكل بـ "الثيران" حيث تقول:

" أن المرأة، كل امرأة، لا تفعل شيئاً غير مصارعة الثيران! ... على طول تاريخها منذ آلاف الأعوام، كانت المرأة

مرصودة لمصارعة كل أنواع الثيران، الراكضة نحوها بقرون مديبة ترتوي من نزفها الدائم"^٧

ومن خلال تفاعلها الحماسي للدفاع عن المرأة تعلن السمان عن الدور الذي لعبت المرأة في حقول العلم والفن والأدب وكيف اثبتت مساواتها للرجل ولكن الرجل (على حد قولها) لا يعترف بها وتقول:

" هل القتل هو الوسيلة الوحيدة لتثبيت المرأة من خلالها مساواتها للرجل"^٨

وتذكر " انجي بروكس" و " اندرا غاندي" كيف ناضلا في حياتهما وكيف تنالا المناصب العالية الكبيرة في حياتهما، ونظرا إلى دور المرأة وإمكاناتها في المجال السياسي وهي تدعو إلى إعادة النظر في عقائد الشعوب حول إمكانات المرأة وقوتها كما تقول:

" ولكن الدور الذي تلعبه المرأة في المئة سنة الأخيرة من عمر الإنسانية القصير جدا (لا يتجاوز الفي سنة)، صار

في حاجة إلى إعادة النظر في تفسيراتنا التقليدية لانتصارات المرأة"^٩

ولا ترى عادة السمان أي خير في المؤتمرات والندوات تنعقد بمناسبة "سنة المرأة العالمية" وتعتقد أن المؤتمرات لم يأت إلا بفظاعات بلاغية ويتم بدون أي فائدة وتؤيد على إقدام عملية تساهم في تثقيف النساء وتعليمهن وتعبر عن فرحتها على الإقدام مثل هذه من قبل "الاتحاد النسائي السوري" الذي كان قرر أن يكون احتفاله " السنة العالمية للمرأة" هو محو الأمية في قطاع واسع من المدن الأرياف وتقول في نهاية هذه المقالة:

" محو الأمية..... إنها الخطوة الأولى الحقيقية لتحرر أي كائن، امرأة أو رجلا اما الاحتفالات الاستعراضية والولائم الأكلية الحافلة بهذه المناسبة البائسة فلا تؤدي إلى غير عسر الهضم"^{١٠}

استغلال جسد المرأة

وتنتشر في الأوساط العربية ظاهرة استغلال الفتيات جسديا وعاطفيا، فكثير من الرجال يقومون باستغلال عواطف المرأة بإظهار لها ودا زائفا لتسلية أهوائه الجنسية غير أنه لا يشعر حجم القلق والألم الذي ستصيب للفتاة حين رفع عنها الأمر، وأيقنت أنها كانت تعيش في الحياة الوهمية وما كانت منها إلا الكذب والسراب. أبرزت عادة السمان هذه القضية في روايتها الشهيرة " بيروت ٧٥" وفيها شخصيتان "ياسمينه" و " نمر". اللذان كانا في علاقة غرامية منذ زمن غير كثير، ويعدها نمر بالزواج بها في المستقبل، فتصدقه ياسمينه وتنجز جميع رغباته. حتى يستغل نمر جسدها ثم يتركها، وعندما تذكره ياسمينه عهده يلومها نمر على عدم ولائها له ويتركها قائلاً:

^٧ عادة السمان، كتابات غير ملتزمة، ص ٢٩

^٨ المصدر السابق، ص ٤٨

^٩ المصدر السابق، ص ٤٥

^{١٠} عادة السمان، كتابات غير ملتزمة، ص ٣٩

"أيها المجنوننة... هل تصدقين أنني أستطيع أن أتزوج من امرأة أسلمتني نفسها قبل الزواج"^{١١}

إن غادة السمان لا تعبر استغلال المرأة عن طريق التحرش العاطفي والجنسي فحسب، وإنما تعبر عن استخدام جسدها كأداة لبيع منتجات من الشركات والصناعات، وغادة السمان تنصح المرأة العربية أن تبتعد عن القيم الغربية التي تري المرأة كبضاعة والألة للتسويق وتلوم كل من يسميها بحرية امرأة وترفض أن يستعير العالم العربي هذا الأسلوب من الغرب كما تقول:

" وإذا كان من مظاهر المرأة الأوروبية تسخير جسدها كسلعة لتسويق بقية السلع، فإننا في غنى عن استيراد

هذا التحرر المشوه الذي يحول المرأة المتحررة إلى سلعة للمجتمعات الاستهلاكية"^{١٢}

والكاتبة زعلانة من النساء العربية اللواتي خلعن الحجاب والعباءة وتقبل على ارتداء الموضة الأوروبية بدافع من التقليد الآلي الغبي وتتفجع على من تتوهم من النساء العربية أن التحرر هو التمرد على أسرتها ومجتمعها وتنسى أن التحرر الأصيل هو رفض كل ما هو غير منطقي وكل ما يشوه حقيقتها.

"إذا ظلت فوضانا على ما هي، سيأتي يوم فترحم فيه على مزايا العباءة والحجاب، على الأقل كانت عورات المرأة الفكرية

مستورة تحتها"

انتزاع حق التصويت من المرأة

إن المجتمع الإنساني قائم على دعامتين وهما: الرجل والمرأة، وعمل كل واحد منهما يؤثر على الآخر إيجابا وسلبا، ومسائل الحياة والقضايا الاجتماعية تؤثرهما سويا، ومازال المجتمع مورطا في هذه القضايا إلى اليوم. وقد بذل الإنسان قصارى جهوده الفكرية والعملية لوصول إلى حل دائم لها، وربما نجح بتقديم حل مؤقت لكنه يفشل في وصول إلى حل ثابت ودائم. لعل أكبر سبب وراء فشل الإنسان إلى تقديم حل دائم هو إهماله عن أهمية مشاركة المرأة في أمور المجتمع وشؤونه، وهو يود أن يفكر في حل القضايا الاجتماعية وحيدا دون مشاركة المرأة معتقدا أنها ناقصة العقل بكل معنى الكلمة، ولم يكن فيها لياقة وقدرة على إيجاد الحلول لقضايا الحياة، ولا تستحق أن يكون لها رأي في القضايا السياسية والوطنية، غير أنها يتأثر بأعمال الرجل تأثرا عميقا في السلم والحرب، ومن اللازم أن يكون لها رأي مستقل لحل القضايا المجتمع ومشاكل الحياة البشرية، ومن اللازم أيضا أن يكون لها حق سياسي وحق الاقتراع و التصويت في الانتخابات ، وحرمانها من التصويت هو أكبر نموذج للتمييز الجنسي عند غادة السمان كما صرحتها قائلة:

"إن نفي المرأة من الحياة السياسية العامة شبيه بحكم النفي خارج البلاد الذي يصدر على بعض

المدنبيين بجرم ما، فهل جرم المرأة هو ببساطة أن الله خلقها امرأة"^{١٣}

انتزاع حق التصويت من المرأة (على حد قول غادة السمان) ليس فقط مسألة تخصها بل هي قضية الرجل أيضا. نظرا إلى هذا، هي تحث الرجال على رفع أصواتهم ضد التمييز الجنسي وتدعوهم إلى المشاركة الفعالة للقضاء على الأحكام القاسية ضد المرأة.

^{١١} غادة السمان، بيروت ٧٥، ص ٥٢

^{١٢} غادة السمان، كتابات غير ملتزمة، ص ٣٣

^{١٣} غادة السمان، الأعماق المحتلة، ص ١٥٧

"خبر كهذا (انتزاع حق التصويت من المرأة) يجب ألا يمر به رفيقنا الرجل الواعي ب (اللامبالاة)، فهو يعني له الكثير، يعني حرمانه من حليف قوي ممكن. والرجل المقهور هو في النهاية الحليف الطبيعي للمقهورين جميعاً وعلى رأسهم المرأة التي تعاني من قمع موكب"^{١٤}

بعد هذه القراءة في أعمال غادة السمان وصلنا إلى النتائج التالية:

١. المرأة تصارع المشاكل الكثيرة في البيت وخارج البيت.
٢. شركات الاعلان تخفض من قدر المرأة لغرض رفع اسعار بضائعها وانتشارها.
٣. المساواة بالرجل لا يعني أن تنافس المرأة للرجل على صعيد الإجرام
٤. العالم يفتقر إلى المشاريع العملية لتثقف المرأة.
٥. من الضرورة أن تطلق سلاح طاقات المرأة كي تعمل، وتتعلم، وتستقل، وتخطي، وتتخذ القرارات كي تكون حقا الشريك الفكري للرجل.
٦. هناك حاجة ماسة إلى إعادة النظر في التفسيرات التقليدية لانتصارات المرأة.
٧. الموضة هي إذلال للمرأة ولكن مع الأسف تقبل عليها المرأة العربية بدون تأمل.

الخاتمة

وظهر ما تقدمنا أن الكاتبة غادة السمان معتدلة في آرائها من خلال طرحها لقضايا المرأة، مثلاً مساواة المرأة في الحقوق والواجبات، وتحرر المرأة من قمع الاعراف القبائلية والعادات والتقاليد والخوف والقهر المجتمعي والمهم عندها أن تكون حركة تحرر المرأة جزءاً من ثورة الإنسان من أجل الحب والجمال والعدالة، لا أن تكون ثورة لأجل منافسة الرجل في مجال الإجرام والعنف.

المصادر والمراجع

١. غادة السمان، عينك قدرتي، منشورات غادة السمان، بيروت، ط. ١٠ حزيران ١٩٩٣ م.
٢. غادة السمان، ليل الغرياء، منشورات غادة السمان، بيروت، ط. ٩ تموز ١٩٩٣ م.
٣. غادة السمان، بيروت ٧٥، منشورات غادة السمان، بيروت، ط. ٦. آب، ١٩٩٠ م.
٤. غادة السمان، ليلة مليار، منشورات غادة السمان، بيروت، ط ٢، آذار ١٩٩١ م.
٥. غادة السمان، الرواية المستحيلة (فسيفاء دمشقية)، منشورات غادة السمان، بيروت، ط ١، نيسان ١٩٩٧ م.
٦. غادة السمان، كتابات غير ملتزمة، منشورات غادة السمان، بيروت، ١٩٩٥ م.

٧. محمد شبلي، القضايا الاجتماعية في قصص غادة السمان، أطروحة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم الإنسانية واللغات الجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي.
٨. فتيحة العقاب، شعرية الخطاب في قصائد غادة السمان- دراسة في المكنونات والخصائص الجمالية، أطروحة الدكتوراه، قسم اللغة والآداب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد بوضاف.
٩. نسيبة دربال، رواية ليلة المليار " لغادة السمان"- مقارنة سيمائية، أطروحة الماجستير، قسم اللغة الآداب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي.
١٠. كرزابي عبد الغني لقمان، الذوق الجمالي في الأدب النسوي العربي المعاصر " رواية كوايبس بيروت لغادة السمان نموذجاً، أطروحة الماجستير، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة أبوبكر بلقايد.